ومن هذه اللبنات الضعيفة القول بأن البيئة الريفية بيئة تؤمن بحرية الإنسان واختياره ولا تؤمن بالجبر والقضاء والقدر ، فلربما كان العكس هو الصحيح فأهل الريف هم الذين يعيشون تحت رحمة قوى الطبيعة وظواهرها التى خلط بينها الإنسان البدائى وبين إرادة قوة عليا مجردة أو غير مجردة سماها الإله أو الآلهة أو القدر أو الجبر ، أو ما سماه اليونان القدماء بالآنانكية بمعنى الضرورة الكونية المنبعثة عما نسميه اليوم بقوانين الطبيعة الحتمية . وكذلك الأمر بالنسبة للعقلية المدنية أى عقلية سكان المدن . . فما نظن أن عقلية الإنسان القديم الذى كان يسكن المدن ويعمل فى الحرف أو فى التجارة قد كانت عقلية تؤمن بالجبر أو بالقضاء والقدر ، ولعلها كانت على العكس أقرب إلى الإيمان بحرية الإنسان واختياره باعتبار أن مادة عمله وحياته كانت طواعية لإرادته واختياره من المادة التى كان يعمل فيها أهل الريف الزراعيون .

والقول بأن العقلية التى تؤمن بالجبر وبالقدر هى العقلية التى يزدهر فيها فن المسرح القائم على الصراع الدرامى بينما العقلية المؤمنة بالاختيار لا يزدهر بينها غير الأدب الملحمى القائم على الجهاد أو الصراع الخارجى كله- قول يقبل المناقشة بل أخشى أن أقول إنه قول يجانبه الصواب الذى نستطيع استقراءه من دراستنا لتاريخ هذه الفنون فى الآداب العالمية .

صحيح أن فكرة الجبر أو القدر قد لعبت تاريخيًا دورًا خطيرًا وفعالا فى ازدهار الفن الدرامى وبخاصة فن التراجيديا عند اليونان القدماء حتى بلغ هذا الفن ذروته فى القوة وإثارة أعماق النفوس والضمائر ، ولكن هذه حقيقة تاريخية نسبية وليست حقيقة فنية